

رفع
عبد الرحيم الخجيري
أسكنه الفردوس
www.moswarat.com

سنة النبوة

في

البيداء والمعجم

تأليف
عبد الحميد البديوي

دار الدعوة
(٥)



رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

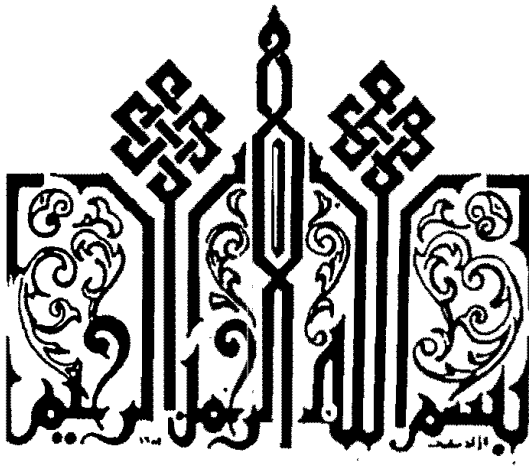
مِنَّةُ اللَّهِ فِي بَيْتِهِ وَاللَّهُ بِكُمْ

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

دار الدعوة للنشر والتوزيع
ص.ب : ٦٦٥٢٠ بيان
ت : ٥٣٩٦٩٤٠
الرمز البريدي : 43756
الكويت

سنة النبوة في ابتداء الإسلام

تأليف
عبد الحميد النجدي



مقدمة :

الحمد لله رب العالمين على نعمة كشف البلاء، وإزاحة الغم والرعب من أرض الكويت، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد.

فإن هذا القرآن الكريم الذي بين أيدينا إنما أنزله الله ليكون منهجاً لحياتنا، ونبراساً نهتدي بهديه في خطواتنا، نتعلم منه العبر والدروس والسنن التي لا تتغير ولا تتبدل.

﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

فهي سنن ثابتة للأفراد والجماعات والأمم والمجتمعات، من فقه هذه السنن وتعامل معها كان من أسعد الناس، ومن تعامى، وغض الطرف عنها كان من أتعس الناس وأشقاهم.

فالقرآن الكريم كتاب، إنما أنزله الله للعمل والتطبيق في واقع البشر في كل زمان ومكان، وليس للقراءة المجردة، والتبرك في المناسبات، وهذا يدعونا إلى أن نتلمس هذه

العجائب التي ملء فيها القرآن، والتي من أبرزها تلك السنن التي يسوقها الله تعالى على سبيل المثال والقصة، حتى يسهل علينا إستلهاهم العبر ومعرفة السنن ليتم التعامل معها وفق القانون الذي يريده الله تعالى.

ومن هذه السنن المذكورة في القرآن الكريم، سنته سبحانه وتعالى في ابتلاء الأمم والمجتمعات والأفراد، وسنته في كشف البلاء، أو تأخير ذلك الكشف، ومنها التحذير بعد الكشف، ثم الانتقام عند الإصرار.

ولقد مرت الكويت بتجربة عظيمة، مليئة بالعبر والدروس، ولقد انطبقت عليها سنة من سنن الله تعالى في المجتمعات، كما حدث للأمم ومجتمعات سبقت، والمطلوب من أهل هذه التجربة، ومن أصابهم شيئاً منها، ومن تشابهت ظروفهم من أهل المنطقة بظروف الكويت.

ثم من كل مجتمع مسلم أن يتدارس هذا الحدث الخطير، دراسة متأنية من جميع الجوانب سواءً السياسية أو الإجتماعية أو الإقتصادية أو الجانب السنني المستلهم من قرآن ربنا، وهذا هو محتوى هذا البحث، وذلك للقيام بواجب الإعلام والتحذير من مغبة الجهل بهذه السنن التي لا تتبدل ولا تتحول، وتمضي بتناسق وترتيب عجيبين،

وتنطبق على الجميع دون الاعتبار للزمان أو المكان أو الجنس.

وحتى يسهل علينا إدراك هذه السنن، سوف نقوم بمنهجية التقسيم إلى مراحل، وذلك من خلال عدة سور في القرآن الكريم. ونسأل الله تعالى أن يجنبنا الفتن صغيرها وكبيرها، ويوفق الولاة والشعوب للوقوف عند هذه السنن والتعلم منها، حتى لا يفوت القطار، حيث لا ينفع الندم ولا البكاء والحسرات، والعاقل الذي يسمع الحق ويعمل بمقتضاه، والأحمق من يتبع هواه ويعطل سمعه وعقله كما سيقول أهل النار يوم القيامة:

﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١).

والله الموفق لكل خير.

(١) الملك ١٠.

المرحلة الأولى

مرحلة الابتلاء:

ويلاحظ في هذه المرحلة عدة أمور منها:

أ - شدة الابتلاء.

ب - بروز الضعف البشري.

ج - الإلتجاء إلى الله تعالى وحده بإخلاص كامل،
وتجرد عن جميع الأسباب الأرضية التي كان يلجأ لها، وذلك
يتمثل بعدة خطوات:

(١) كثرة الدعاء.

(٢) التقرب إلى الله بشتى أنواع القرب.

(٣) التوبة من المعاصي الماضية.

(٤) العودة للفطرة.

د - معاهدة الله بسلوك الصراط المستقيم بعد رفع
البلاء.

هذه الملاحظات نجدها تتكرر في جميع الآيات الكريمة
التي تتحدث عن مرحلة الابتلاء لأي أمة من الأمم أو فرد
من الأفراد أو مجموعة من البشر.

* أنواع البلاء :

والبلاء لا يتحدد بنوع واحد، إنما يتنوع بتنوع المعاصي التي يقترفها بني البشر، والقرآن الكريم فصل فيها حيناً، وذكرها على صفة العموم حيناً آخر، فقد ذكرها بالتفصيل في ابتلائه لآل فرعون بقوله تعالى:

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ

الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَاءَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ ﴾^(٣).

وذكرها على صفة العموم في مواضع أخرى وذلك بقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ ﴾^(٣).

وقوله:

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴾^(٤).

(٢) الأعراف ١٣٣ .

(٣) يونس ١٢ .

(٤) الأعراف ١٣٤ .

وقوله :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ ﴾^(٥) .

ولكننا يمكن أن نقسمه إلى ثلاثة أنواع رئيسة :

(١) البلاء الاعتيادي - وهو ما يصيب الإنسان من الأمراض، وفقدان الأحبة، ونقص الأموال والثمرات وما شابهها .

(٢) الكوارث الطبيعية - وهي الكوارث العظيمة في حياة المجتمعات، كالزلازل والفيضانات والبراكين .

(٣) الفتن العظيمة - وهي التي تصيب المجتمعات والتي يترتب عليها الكثير من الابتلاء الاعتيادي والكثير من الظلم، وانتهاك للكثير من مقاصد الشرع الخمسة التي حث على حفظها وهي «الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال» .

وهذا النوع هو الذي أصاب الكويت، وهو مدار دراستنا في هذا البحث . والقرآن الكريم في الكثير من الآيات يذكر جانباً من هذه الكوارث، والذي عادة يكون

(٥) الأنعام ٤٠ .

الجانب القدري ، كما يطلق عليه الإمام ابن القيم ، مثل هيجان البحر ، والدخان ، وسقوط الحجارة من السماء وما شابهها ، ويذكر الطبائع البشرية التي تبرز خلال هذا البلاء ، مما يعطي المرء إدراكاً أوسع بحجم هذه الطبائع ، وحجم الخسارة المترتبة على جوانب كثيرة من البلاء ، تحت صورة بلاء واحد ، وهو ما حدث للكويت .

* السفينة الماخرة وغضبة البحر :

يقول تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾^(٦) .

ويقول تعالى :

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾^(٧) .

ويقول تعالى :

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾^(٨) .

(٦) الإسراء ٦٧ .

(٧) العنكبوت ٦٥ .

(٨) لقمان ٣٢ .

ويقول تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَ تَهَارِبٌ عَاصِفٌ
وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ﴾^(٩).

* هول البحر:

يقول صاحب الظلال: «والسياق يعرض هذا المشهد،
مشهد الفلك في البحر، نموذجاً للحظات الشدة والخرج.
لأن الشعور بيد الله في الخضم أقوى وأشد حساسية،
ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة في الخضم، تتقاذفها
الأمواج والتيارات والناس متشبثون بهذه النقطة على كف
الرحمن.

إنه مشهد يحس به من كابده، ويحس بالقلوب الخافقة
الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة في الفلك صغيراً كان

(٩) يونس ٢٢.

أو كبيراً حتى عابرات المحيط الجبارة التي تبدو في بعض
اللحظات كالريشة في مهب الرياح على ثبح الموج الجبار!

والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية وهو يشعر الناس أن
يد الله تزجي لهم الفلك في البحر وتدفعه ليبتغوا من فضله

﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ .

فالرحمة هي أظهر ما تستشعره القلوب في هذا الأوان .

ثم ينتقل بهم من الإجزاء الرخي للإضطراب العتي .
حين ينسى الركب في الفلك بين الأمواج كل قوة وكل
سند وكل مجير إلا الله ، فيتجهون إليه وحده في لحظة الخطر
لا يدعون أحداً سواه :

﴿ضَلَّ مَنْ نَدَعُونَ إِلَّا آيَاتَهُ﴾ ^(١٠) . . .

والانقلاب الذي يحدث لكثير من الناس في طبائعهم
وعاداتهم ومألوفاتهم إنما تتناسب شدته مع شدة البلاء
الذي يصيبهم ، خاصة إذا عاينوا الهلاك بأعينهم ، وأحسوا
به بكل جوارحهم ، وهو ما يذكره الإمام الرازي في تفسيره
معقباتاً لما جاء في سورة يونس بقوله : «واعلم أن الإنسان

(١٠) الظلال ٤/٢٢٤٠ .

إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود، حصل له الفرح التام والمسرة القوية، ثم قد تظهر علامات الهلاك دفعة واحدة. فأولها: أن تغيثهم الرياح العاصفة الشديدة. وثانيها: أن تأتيهم الأمواج العظيمة من كل جانب. وثالثها: أن يغلب على ظنونهم أن الهلاك واقع، وأن النجاة ليست متوقعة، ولا شك أن الانتقال من تلك الأحوال الطيبة الموافقة إلى هذه الأحوال القاهرة الشديدة يوجب الخوف العظيم، والرعب الشديد، وأيضاً مشاهدة هذه الأحوال والأهوال في البحر مختصة بإيجاب مزيد الرعب، والخوف ثم إن الإنسان في هذه الحالة لا يطمع إلا في فضل الله ورحمته، ويصير منقطع الطمع عن جميع الخلق، ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعاً إلى الله تعالى»^(١١).

سفينة الكويت :

والآيات التي جاءت في سورة يونس من أقرب الصور لما حدث في الكويت، فالبحر أو اليابسة كلاهما يسوقه الله تعالى نموذجاً كما قال سيد للحظات الشدة العظيمة التي تصيب الإنسان لتكشف ما فيه من ضعف شديد، وإن

(١١) التفسير الكبير ١٧/٦٦.

كان ما يحدث في الفلك من الشدائد ما هو أعظم وأفظع .

فالكويت كانت بمثابة السفينة التي تمخر عباب البحر آمنة مستقرة بتلك الرياح الطيبة ما يقارب الثلاثة قرون، هي كل فترة نشوءها، لم يزعج تلك السفينة إلا بعض هبات الرياح العابرة بين فترة وأخرى، تهبج الأمواج فترات قليلة من الزمن ما تلبث أن تنجلي، لتعود السفينة، تشق هذا البحر العميق بالرياح الطيبة .

الغفلة عن الرياح العابرة:

ولم ينتبه ربان السفينة، ولا الكثير من ركابها بسر تلك الرياح العابرة، التي كانت تهب عليهم بين الفينة والأخرى، وكانوا يعرفون من أين تأتي، ولكنهم لم يتخذوا الأسباب لتلافي تلك الرياح التي ما هي إلا إنذارات ربانية بسبب خطأ المسير، وتعامي معظمهم عن دراسة تلك الرياح دراسة وافية تجنبهم مغبتها في المستقبل، دراسة تشمل أنواعها، وآثارها، وأسباب هبوبها، وأهم من ذلك كله طرق الوقاية منها ومن آثارها العظيمة إذا ما جاءت بصورة كبيرة، ووصلوا في غفلتهم إلى:

مرحلة: «الفرح» الطاغي عن الواقع الأليم.

«الفرح» المتغافل عما تحدثه تلك الرياح في سفن
قريبة منا.

«الفرح» المتعالي عن سماع تحذير بعض ركاب
السفينة بالخطر الداهم.

«الفرح» المتعالي عن فن قيادة السفينة، والابتعاد
بها عن مواطن الرياح.

﴿وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَ تَهَا رَبِيحٌ عَاصِفٌ . وَجَاءَ هُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لِيْنَ أُجِيبَتْنَا
مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٢).

هبوب الرياح العاصفة:

إذن جاءت الرياح العاصفة التي كان الدعاء المخلصون
يحدرون منها ومن مغبتها، وأسباب مجيئها.

وكانوا يقولون لربان السفينة وطاقمه:

أن عدم التحاكم لكتاب الله تعالى سبب من أسباب هبوب
العاصفة.

وأن غياب الشورى والمشاركة في قيادة السفينة

(١٢) يونس ٢٢ .

وأن انتشار الظلم
وأن انتشار مظاهر الفساد الإعلامي والاجتماعي
وأن انتشار الربا
وأن تقريب المفسدين وإبعاد المخلصين عن طاقم القيادة
وأن دعم الظلمة الطغاة من ربابنة السفن المجاورة على حساب شعورهم سبب من أسباب هبوب العاصفة .

وكان صوت صفير الإعصار عندما قرب من السفينة واضحاً لهؤلاء المخلصين من ركاب السفينة، فذهبوا يهرولون نحو الربان وطاقمه يحذرونهم للمرة الألف أن يعدلوا مسار السفينة، ولكنهم أصروا على ذلك الخط المؤدي إلى الدمار.

وجاءت العاصفة ﴿جَاءَ تَهَارِيحٌ عَاصِفٌ﴾ .

عاصفة كنا نسمع بها في الروايات الخيالية، وروايات الأفلام الحربية، وندرسها في تاريخ الأمم الغابرة، ولكننا لم نرها بأعيننا، كنا نسلي بها أطفالنا قبل النوم، ولكننا حرمتنا النوم عند رؤيتها.

عصفت بكل شيء على أرض الكويت بشكل خاص، وعصفت بالعالم كله بشكل عام.

ولم يبق شيء على الكويت لم يتزعزع ، أو ينخلع بسبب هبوب العاصفة .

﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ .

وجاءهم جيش الطاغية من كل مكان من البر والبحر والجو، وحتى من داخل السفينة . وما هي إلا ساعات حتى كانوا في كل جزء من أجزاء السفينة .

جاء جيش الطاغية ولا يوجد طاقم القيادة في السفينة ،

جاء جيش الطاغية ومقود السفينة تعيث به الرياح ميمنة وميسرة .

﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ احْتِيطَ بِهِمْ ﴾ .

أي «غلب على ظنونهم الهلاك»^(١٣) .

فهم يرون وحوشاً تغزو سفينتهم ، لا يملكون من صفات البشر شيء .

وهم يرون سفينة بلا ربان ولا طاقم قيادة .

وهم يرون جراداً لا بشراً ، مغولاً لا عرباً ولا مسلمين .

(١٣) فتح القدير ٤٣٤/٢ .

وهم يرون أنفسهم قد انزلوا عن العالم، بل وصم العالم أذنه عن سماع صيحاتهم واستغاثتهم لمدة أربعة أيام.

وهم يرون الدماء تسيل رخيصة لأتفه الأسباب.

وهم يرون أعراض الحرائر تنتهك.

وهم يرون المال ينهب، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.

وهم يرون بأعينهم التي في رؤوسهم، لا التي في رؤوس غيرهم، يرون من هم من جلدتهم ويتكلمون بألسنتهم يدعمون ويباركون ما قام به الطاغية.

﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾

لا يشكون بهذه الحقيقة قيد أنملة.

الإِتِّجَاهُ إِلَى رَبِّ السَّمَاءِ:

فما كان بعد ذلك إلا الإِتِّجَاهُ إِلَى مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَمَنْ بِيَدِهِ نَوَاصِي الْعِبَادِ، وَمَنْ يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ، وَمَنْ لَا يَرُدُّ دَعَاءَ الْعَبْدِ إِذَا دَعَاهُ،

﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١٤).

﴿وَلَمَّا نَسُوا اللَّهَ أَلْحَقُوا بِهِمْ آيَاتِنَا فَالْتَمَحُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾.

يقول الشوكاني: «وإذا مسكم الضر، يعني خوف الغرق في البحر» ضل من تدعون» من الآلهة، وذهب عن خواطركم، ولم يوجد لإغاثتكم ما كنتم تدعون من دونه من صنم، أو جن، أو ملك، أو بشر إلا إياه، وحده فإنكم تعقدون رجاءكم برحمته وإغاثته»^(١٥) ويقول الإمام الرازي: «وبيان ذلك هو أنهم إذا انقطع رجائهم عن الدنيا، رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد، ووجدوا وأخلصوا»^(١٦).

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾^(١٧).

(١٤) غافر ٦٠.

(١٥) فتح القدير ٣/ ٢٤٤.

(١٦) التفسير الكبير ص ٩٢.

(١٧) يونس ١٢.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾^(١٨)

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌّ كَالظُّلِّ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(١٩)

يقول سيد رحمہ اللہ عند قوله تعالى:

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌّ كَالظُّلِّ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ . . .

فأمام مثل هذا الخطر، والموج يغشاهم كالظلل والفلک كالريشة الحائرة في الخضم الهائل . . . تتعري النفوس من القدرة الخادعة، وتتجرد من القدرة الموهومة، التي تحجب عنها في ساعات الرخاء حقيقة فطرتها، وتقطع ما بين هذه الفطرة وخالقها. حتى إذا سقطت هذه الحوائل، وتعرت الفطرة من كل ستار، استقامت إلى ربها، واتجهت إلى بارئها، وأخلصت له الدين، ونفت كل شريك، ونبذت كل دخيل. ودعوا الله مخلصين له الدين»^(٢٠).

فاتجه أهل الكويت بشكل عام إلى بيوت الله تعالى،

(١٨) النمل ٥٣ .

(١٩) لقمان ٣٢ .

(٢٠) الظلال ٥/٢٧٩٧ .

فكانت الملجأ، بعد أن تخلّى عنهم الجميع، وحدث
 الانقلاب في النفوس، وعاد أهل الكويت إلى فطرتهم
 الناصعة، وصلّى من كان لا يصلي، ودمعت العيون التي
 قحطت وهي تناجي ربها في ساعات العسرة، وتمجبت
 من كانت متبرجة، وأصبحت بيوت الله تعالى هي
 المنتديات، وهي المنطلقات إلى ميدان الشرف والذود عن
 الدين والأعراض، وغدا الصيام سجية لهم، كل اثنين
 وخميس، وأصبح القيام من عادتهم كل ليلة، وتعالى صوت
 «الله أكبر» من على سطوح البيوت في صوت واحد يرتفع
 إلى السماء ليقول الله تعالى:

﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرُ﴾^(٢١).

وتحولت الكويت إلى محراب كبير يعبد فيه الله وحده لا
 شريك له، وتذوق الناس طعم الإيمان، بعد أن كانوا
 مشغولين بجمال البحر قبل هبوب العاصفة، وتخفف الناس
 من ماديتهم، ليزيدوا من روحانيتهم.

عهد مع الله تعالى:

وأمام هذا الضعف البشري، والعودة إلى الفطرة،

(٢١) القمر ١٠.

وشدة الكرب الذي أصاب أهل الكويت عاهد أهل الكويت في الداخل والخارج الله تعالى:

﴿لَيْنَ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

وتعالت أصواتهم في بيوت الله تعالى في القنوت، وفي جوف الليل وعيونهم غارقة في الدموع:

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾^(٢٢).

وكانت صورة العهد في الداخل تتمثل في الدعاء المستمر في القنوت جماعات وأفراداً، عهد على صورة النذر والوعد بأنهم سيكونون من الشاكرين الأوفياء للعمل بما أمر سبحانه وتعالى، إذا ما أوقف هبوب هذه العاصفة على سفينتهم، وكانت صورة العهد في الخارج متمثلة في المؤتمر الشعبي الذي ضم جميع فئات الشعب، وكان من أول قراراته أن تكون الشريعة الإسلامية هي الأساس في الكويت المستقبل.

وإذا كان العلماء يعرفون الشكر بظهور أثر النعمة على المنعم عليه، فيقال: «شكرت الدابة» أي ظهر أثر العلف عليها، كذلك الإنسان فإنه يكون شاكراً إذا ظهرت آثار

(٢٢) الدخان ١٢.

نعمة الله عليه في سلوكه وقراراته ومعاملاته وكلماته وقيمه وكل شيء. فعهد أهل الكويت مع الله يقتضي عدة أمور منها:

- ١) الاحتكام لكتاب الله تعالى.
- ٢) اعتماد الإسلام كأساس للجهاز التربوي والإعلامي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري.
- ٣) إعادة دور المسجد كمركز إشعاع لنشر الحق وتوعية الناس.
- ٤) الولاء لله وأوليائه والبراء من أعداء الله.
- ٥) تقريب الصالحين المخلصين وإبعاد المفسدين.
- ٦) تنقية المجتمع من كل مظاهر الفساد التي نهى الله عنها.
- ٧) إعادة النظر في العلاقات الخارجية على أساس الولاء والبراء.
- ٨) نشر العدالة الاجتماعية، وإزالة التمييز والطبقية في جميع مناحي الحياة.
- ٩) الإقلاع فوراً عن جميع المعاصي.
- ١٠) معاقبة المجاهرين بالمعاصي، والناشرين للفساد.
- ١١) تأكيد الهوية الإسلامية في جميع مؤسسات الدولة.

المرحلة الثانية:

كشف البلاء:

ويلاحظ في هذه المرحلة الأمور التالية :

(١) إستجابة دعاء المكروب .

(٢) الإعراض ونسيان العهد مع الله ، والمتمثل بعدة صور منها :

أ - جحود النعمة .

ب - البغي .

ج - النسيان .

د - قسوة القلب .

هـ - العودة للمعاصي .

و - نكث العهود .

(٣) إستفادة البعض من البلاء ، وإيفائهم بالعهد على الثبات والإستقامة .

* إستجابة الدعاء :

وبعد هذا الإقبال على الله ، والذي لم تشهد المنطقة نظيراً له لا بالكم ولا بالنوع ، وبعد صدق الدعاء ، والإخلاص فيه والتذلل والاستقامة بين يدي الله تعالى ، وعودة الكثيرين إلى الصراط المستقيم ، أنجز الله وعده ، وكشف الغمة ، وأزال الكربة ، وكلها من أهداف البلاء الذي يقدره الله سبحانه على العباد لقوله تعالى :

﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٣) .

وقوله :

﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٤) .

فلقد أنجز الله وعده بعد أن أدرك أهل الكويت أهداف البلاء فعادوا إليه سبحانه وتعالى وسلكوا طريقه ، نادمين على ما كان منهم :

(٢٣) السجدة ٢١ .

(٢٤) الزخرف ٤٨ .

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (٢٥).

يقول سيد رحمه الله عن قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ
وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَأَلَا
مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذَكَّرُونَ﴾ ..

فيلمس وجدانهم وهو يذكرهم بخوالج أنفسهم،
وواقع أحوالهم.

فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأً إلا
الله يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء ذلك حين تضيق
الحلقة، وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى، وتتهاوى
الأسناد، وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجرداً من
وسائل النصر وأسباب الخلاص. لا قوته، ولا قوة في
الأرض تنجده. . . وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ
عنه أو تخلى، وكل من كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو
تولى. . . في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة
الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة. ويتجه الإنسان إلى
الله ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء. فهو

(٢٥) النمل ٦٢.

الذي يجيب المضطر إذا دعاه . هو وحده دون سواه . يجيبه ويكشف عنه سوء، ويرده إلى الأمن والسلامة ، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق»^(٢٦) .

ويذكر سبحانه وتعالى عن أيوب عليه السلام حين مسه من البلاء ما مسه فاتجه إلى الله تعالى فكشف عنه ضره .

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ

نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٢﴾

فَأَسْمَجْنَا لَهُمْ فَاكْشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ

وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٢٧﴾ .

يقول ابن كثير:

«يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد كثيرة ومنازل مرضية فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره ثم ابتلي في جسده يقال بالجذام في سائر بدنه ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل حتى عافه الجليس وأفرد في ناحية من البلد ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى

(٢٦) الظلال ٥/٢٦٥٨ .

(٢٧) الأنبياء ٨٣/٨٤ .

زوجته كانت تقوم بأمره ويقال إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله وقد قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل» وفي الحديث الآخر: «يبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه»، وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر وبه يضرب المثل في ذلك»^(٢٨).

* صورة الاستجابة :

وكانت استجابة الله تعالى لأهل الكويت المظلومين عجيبة من عجائب الزمان، أسكتت كهنة السياسة الذين كانوا يجزمون بعدم عودة الكويت إلى أهلها، وسيكون شأنها شأن فلسطين، وزنجبار، وجزر الفلبين، وجزيرتي طنب الكبرى والصغرى، والتي سكت عنها العالم تماماً، وكأنها أصبحت شرعية لمغتصبيها.

وشاء الله بقدرته أن يسخر الجيوش الكافرة وغيرها من جيوش المسلمين والعرب من أطراف العالم للوقوف مع المظلوم، وقذف الرعب في قلوب الجيش العراقي قبل دخول جندي واحد من جنود الحلفاء، ليري أهل

(٢٨) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٨ .

الكويت، ويقر الله أعينهم، ويريمهم استجابته لدعائهم قبل دخول جيش الحلفاء، ليريم الهروب الكبير والذعر بين صفوف جيش الطاغية، مشكلين بذلك لوحة طبيعية كبيرة (لأم الهزائم) تاركين وراءهم أسلحتهم الثقيلة والخفيفة، ولشدة الزحام واستعجال الهروب للخوف والرعب الذي ملأ قلوبهم، قتل بعضهم البعض قبل أن تحصدهم طائرات الحلفاء.

وكان الله قادراً على أن يجعل الجيش العراقي صامداً يقاتل في التحصينات الكبيرة التي أذهلت المراقبين العسكريين لعظمتها، حتى يحدث بعد ذلك مجزرة عظيمة، بين صفوف المدنيين قبل العسكريين، ولكن الله ستر ورحم، وقدر غير ذلك، قدر الاستجابة لدعاء المظلومين، مرتقباً ما عاهدوه عليه:

﴿لَيْنَ أُنَجِّتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

* بداية الإعراض:

ولكن ما الذي حدث بعد تلك الاستجابة لقطاع ليس بالقليل من الشعب؟! حدث الإعراض الذي حذرنا الله تعالى منه في حالة كشف البلاء.

﴿ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ (٢٩)

﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٣٠)

﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (٣١)

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُوفَهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْمِيسَةَ ﴾ (٣٢)

﴿ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٣٣)

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِّنْ ضُرٍّ لَّلْجُوفِ فِي طُغْيَانِهِمْ

يَعْمَهُونَ ﴾ (٣٤)

(٢٩) الإسراء ٦٧ .

(٣٠) العنكبوت ٦٥ .

(٣١) يونس ٢٢ .

(٣٢) يونس ١٢ .

(٣٣) النحل ٥٤ .

(٣٤) المؤمنون ٧٥ .

يقول سيد رحمه الله :

«ولكن الإنسان هو الإنسان، فما أن تنجلي الغمرة،
وتحس قدماه ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة
الشدّة، فينسى الله، وتتقاذفه الأهواء وتجرفه الشهوات،
وتغطي على فطرته التي جلاها الخطر:

﴿فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ .

إلا من اتصل قلبه بالله فأشرق واستنار»^(٣٥) .

وخرج الناس إلى الشوارع مهللين فرحين بكشف البلاء
دامعة عيونهم غير مصدقين ما يرون بأعينهم من تحرير
الكويت، خرج الناس يرفعون أعلام الكويت بأيديهم
وعلى سياراتهم، وما كان هذا داخل الكويت فحسب بل
عم كل بقعة فيها كويتيون، وخر الصالحون سجوداً لله
تعالى بنعمة التحرير، واستقبلوا شهر رمضان بلا كهرباء
ولا ماء، ولكن بوطن محرر من الطاغوت الذي لا يعرف
الله تعالى، فبالرغم من ندرة الطعام والماء وانعدام
الكهرباء، إلا أنه كان أجمل رمضان عاشه أهل الكويت .

وما أن انتهى رمضان وابتدأت الحياة تعود رويداً رويداً

(٣٥) الظلال ٤ / ٢٢٤٠ .

إلى الكويت، كأنها خيوط الفجر الذي يشق ظلام اليوم الذي انتهى حتى عاد الكثير من الناس إلى ما كانوا عليه، فقلت صفوف الصلاة في المساجد، وقل القارؤون للقرآن الكريم، وعاد المكياج إلى وجوه النساء، وعادت طوابير المغازلين إلى الأسواق المركزية، وانتشر التأمرك في كل مكان على صورة (التيي شيرت) الذي يلبسه الرجال والنساء. وعاد التلفزيون يعرض ما يغضب الرب سبحانه وتعالى، من الرقص والمجون والبرامج الساقطة، وما كأننا خرجنا من بلاء وبدت مظاهر من التبرج فاضحة على النساء، وبدأ البعض يمارس الظلم على الجنسيات التي أيدت حكوماتها الطاغية، من غير ذنب اقترفوه كشعب. وأكمل هذا الإعراض تلكأ الحكومة فيما عاهدت به من الاحتكام لشريعة الله تعالى، وظهرت الكثير من مظاهر البغي، كسرقة الممتلكات الخاصة للبيوت الخالية من أهلها، وسرقة المحال التجارية، وسرقة قطع السيارات المتروكة.

ومنع أزواج وأبناء الكويتية المتزوجة من غير كويتي من جنسيات الدول التي أيدت الغزو، منعوا من دخول الكويت فتفرقت آلاف الأسر وتشتت شملها دونها ذنب اقترفوه، في صور كثيرة تدل على الإعراض.

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْمِ مَسَّهُ ﴾^(٣٦)

فما أن جاء التحرير، نسوا الدعاء المصاحب لبكائهم وتوسلهم لله تعالى واستكانتهم بأن يرفع البلاء نسوا العهود والوعود، فنسوا عندما تأكدوا أن البلاء قد رفع حقاً، بل إن بعضهم قد نسب التحرير إلى البشر وليس إلى الله تعالى يقول صاحب الظلال:

«إنها صورة مبدعة لنموذج بشري مكرور. . وإن الإنسان ليظل مدفوعاً مع تيار الحياة، يخطيء ويذنب ويطنغي ويسرف، والصحة موفورة، والظروف مواتية. وليس - إلا من عصم الله ورحم - من يتذكر في إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفاً وأن هناك عجزاً. وساعات الرخاء تُنسي، والإحساس بالغنى يُطنغي. . ثم يمسه الضر فإذا هو جزوع هلوع، وإذا هو كثير الدعاء، عريض الرجاء، ضيق بالشدة مستعجل للرخاء. فإذا استجيب الدعاء وكشف الضر انطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر. انطلق إلى ما كان فيه من قبل من اندفاع واستهتار»^(٣٧).

(٣٦) يونس ١٢ .

(٣٧) الظلال ٣/١٧٦٩ .

استفادة البعض من المحنة :

وهذا الإعراض لا ينطبق على الجميع، بل إن عدداً ليس بالقليل أيضاً استفاد من المحنة، واعتبر من دروسها، وثبت على ما عاهد الله عليه لم يغير ولم يبدل، وبقي على ما كان عليه أيام المحنة من المحافظة على الصلاة في المساجد، وحب الصالحين والدعاة إلى الله، والتوبة من معاصيه، والصيام الأسبوعي، وقيام الليل، وغشيان مجالس الذكر والخير، والحجاب. وبدت مظاهر إيجابية جديدة في المجتمع تدل دلالة واضحة أكيدة على استفادة هذا البعض، منها إنشاء صندوق التكافل لرعاية أسر الأسرى والشهداء، ومطالبة بعض الصالحين بإنشاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإطلاق اللحن بين صفوف الجيش والشرطة، وتوقف البيع في بعض الأسواق المركزية أثناء الصلاة، وتغير نظرة الكثير للمتدينين خاصة بعدما رأوا الجهود التي قاموا بها أثناء الغزو، وتأسيس الحركة الإسلامية الدستورية، زيادة عدد الخطباء والواعظين والأئمة من الكويتيين، عودة اللجان الخيرية للعمل بصورة أكبر من قبل كل هذه الصور تؤكد أن بعض من كان على السفينة، لم يجرفه تيار الفرح بعد النجاة إلى

اليابسة، بل ثبت فيما عاهد الله عليه وانطلق يذكر الناس بعهدهم مع الله تعالى.

﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ﴾

﴿ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾^(٣٨)

يقول الشوكاني: «فلما نجاهم إلى البر، صاروا على قسمين: فقسم (مقتصد) أي موف بما عاهد عليه الله في البحر من إخلاص الدين له، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر، وأخرجه إلى البر سالمًا. قال الحسن: معنى مقتصد مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة، والتقدير فمِنْهُمْ مقتصد ومنهم كافر، ويدل على هذا المحذوف قوله:

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾.

الخر: أسوأ الغدر وأقبحه»^(٣٩).

* سؤالان للفئة المعرضة:

والله تعالى يسأل من كان على السفينة من الذين أعرضوا عندما نجاهم إلى البر.

(٣٨) لقمان ٣٢.

(٣٩) فتح القدير ٤/٢٤٥ بتصرف.

السؤال الأول:

﴿فَأَمْنُتُمْرَانَ يَخْشَفُ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا
ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا﴾ (٤٠).

والخطاب موجه لتلك الفئة التي نكثت عهودها مع الله ،
وعادت إلى معاصيها، وقست قلوبها، وطغت وبلغت
يخاطبها الرب سبحانه وتعالى مخاطبة منطقية، يسألهم هل
أنتم في أمان وضمان من عقاب الله بمجرد نزولكم اليابسة،
والله بهذا يريد أن يوصل لهم حقيقة إيمانية بديهية، ولكن
الران إذا غطى القلوب يعمي عن رؤيتها، هذه الحقيقة
تقول أن الله تعالى الذي لجأتم إليه وأنتم على ظهر السفينة
والأمواج تعيث بها ميمنة وميسرة، وهي كالجبال، ودعوتوه
بأن يخلصكم من العاصفة، وينقذكم من الأمواج التي
أحاطت بكم، فاستجاب لكم، وأنقذكم بقدرته سبحانه
وتعالى، هو ذاته الإله الذي يستطيع أن يأمر الأرض
بالانشقاق فتبتلعكم، فهو قادر على إهلاككم في البحر
كقدرته على إهلاككم في اليابسة، وذلك لأن كل ما على
الأرض والبحر وما بينهما ملكاً له يتصرف به كيفما يشاء
ومتى ما يشاء إنه على كل شيء قدير.

(٤٠) الإسراء ٦٨ .

فالإله الذي لجأ له أهل الكويت عند هجوم المغول، هو ذات الإله الموجود والحي الذي لا يموت بعد التحرير ولكن العذاب الثاني الذي يعقب الإعراض يقول تعالى في نهايته:

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا الْكُفْرَ وَكَيْلًا﴾.

«أي حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأس الله»^(٤١) فهل يستطيع الجيش الأمريكي أن يوقف الخسف في الأرض، أو يستطيع بكل ما يملك من التكنولوجيا أن يوقف الرياح العاتية المليئة بالحصى الصغار، فإذا كان الله قد سخر جيوش العالم للوقوف مع أهل الكويت المظلومين في البلاء الأول، ولكنه لن يوقف أحداً في البلاء الآخر الذي يعقب الإعراض، وحتى إن وقف فإنه لا يستطيع.

السؤال الثاني:

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾^(٤٢).

(٤١) فتح القدير ٣/ ٢٤٥.

(٤٢) الإسراء ٦٨.

وهنا يطرح سؤالاً آخر للمعرضين، ولغير المستفيدين من الأزمات، وهو احتمال عودتهم للإبحار في سفينتهم، واحتمال عودة الرياح العاتية مرة ثانية، ولكن من نوع آخر وهي الرياح القاصف. يقول الشوكاني: «القاصف: الريح الشديدة التي تكسر بشدة، من قصف الشيء يقصفه: أي كسره بشدة»^(٤٣).

ويكون بعد ذلك الغرق الذي لا عودة بعده.

وهذا يدعونا نحن أهل الكويت للتفكير، ولنصيحة المعرضين بأن يتنبهوا لهذا الاحتمال، فقد تعود العلاقات مرة ثانية، وقد يتكرر الهجوم مرة أخرى، سواءً من هذا البلد أو من بلد آخر، وقد يكون البلاء القادم من نوع آخر تماماً، كما هو الحال بالنسبة لتغير نوعية الرياح. ولكن في هذه المرة يعقب الله تعالى بعد الهلاك:

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾

«أي ثائراً يطالبنا بما فعلنا. قال الزجاج: لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم» فإذا كان الله قد رقق قلوب

(٤٣) فتح القدير ٣/ ٢٤٥.

البشر في أنحاء العالم فبكوا علينا وعلى مصابنا، فلن يسأل
عنا أحد بعد هذه العقوبة الثانية .

هذان سؤالان للمعرضين ليتفكروا بما سيحدث جراء
هذا الإعراض، ونكث العهود التي قطعوها مع الله تعالى
أثناء الأزمة .

المرحلة الثالثة

فتح أبواب الرزق :

هذه هي المرحلة الثالثة في سنة الله تعالى في الأمم عند ابتلائها، وهي مرحلة تخص تلك الفئة التي لم تدرك أهداف البلاء، ولم تستفد مما أصابها. فلم تعمل بمقتضى هذه السنة، وما يريد الله منها عند ابتلائها.

يقول تعالى في شأن هذه الفئة، وعن هذه المرحلة:

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا
نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٤٤﴾

يقول ابن كثير: «أي فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا لدينا

﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ .

أي ما رقت ولا خشعت .

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي من الشرك والمعاندة والمعاصي .

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ .

(٤٤) الأنعام ٤٠ ، ٤١ .

أي أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم .

﴿افْتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ .

أي فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون ،
وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم^(٤٥) .

فما يريد الله تعالى عند ابتلاء الأمم التضرع إليه عند
رؤية قدرته عليهم ، وانكشاف ضعفهم أمامه وهذه هي
النتيجة الطبيعية التي يقوم بها أصحاب الفطرة السليمة ،
أما الذين فسدت فطرتهم ، فإن أهواءهم تغلب فطرتهم ،
وذلك لأنهم لم يتخذوا الله إلهاً لهم بل اتخذوا أهواءهم هي
الآلهة ، لذلك يقول تعالى :

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾^(٤٦) ثم غطى الران قلوبهم
حتى غدت كالحجارة بل أشد قسوة ، قد انسدت جميع
المسامات فيها ، فلم يعد هناك مدخل للدخول العبر
والمواعظ المسموعة أو المشاهدة ، وفسدت جميع أجهزة
الاستقبال عندهم فأصبحوا كالأنعام بل هم أضل :

(٤٥) تفسير ابن كثير ٢/١٣٢ ، ١٣٣ .

(٤٦) الفرقان ٤٣ .

﴿ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً ﴾ (٤٧)

فعندما وصلوا إلى هذه المرحلة فتح الله عليهم أبواب الرزق من كل ما يحبون ويتمنون، وهذا هو استدراج من عند الله تعالى، وهو في ذات الوقت فرصة للعودة إليه، والتفكير بما أقدموا عليه، وهذه المرحلة من أخطر المراحل التي تمر بها أمة من الأمم، ذلك لأن إقناع الناس بها من أصعب الأمور، والشيطان يزداد اشتداده عليهم في هذه المرحلة ليجعلهم في قناعة تامة من أنهم غير مخطئين، وغير مقترفين ما يستحق العقوبة الإلهية، ولو كانوا كذلك، فلماذا يفتح الله عليهم هذه الأبواب من الرزق، أليس هذا علامة من علامات حب الله تعالى لنا؟؟

وهذا يجعلهم في إصرار مبالغ في رد نصح الدعاة والمخلصين بالإقلاع عن المعاصي، والقضاء على مظاهر الفساد.

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ (٤٨)

(٤٧) البقرة ٧.

(٤٨) الفجر ١٥.

أي لولا أنني أستحق ذلك لما أكرمني الله تعالى . . هذا ما يقوله عقلهم وتفكيرهم الباطني ، ولذلك يتصرفون هذا التصرف المعوج ويصرون عليه .

ويذكر الله تعالى هذا الصنف من الناس ، الذين يغترون بالفرص التي يعطيهم الله تعالى ، وعدم معاقبتهم لمعاصيهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

نُهِوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعْوَدُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْآثِمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٤٩﴾

فهم ها هنا بصدق أعمالهم وصوابها لتأخير عقوبة الله تعالى لهم ، وهو خداع نفسي يعرفون خلافه .

والله تعالى يهدد هذه الفئة التي لم تنتبه لهذه المرحلة بقوله :

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول الشوكاني : « أي لكي يكفروا بما آتيناهم من نعمة

كشفت الضر، حتى كأن هذا الكفر منهم الواقع في موضع
الشكر الواجب عليهم غرض لهم ومقصد من مقاصدهم،
وهذا غاية في العتو والعتاد ليس وراءها غاية»^(٥٠).

(٥٠) فتح القدير ٣/١٦٩.

المرحلة الرابعة:

الإهلاك:

ويلاحظ في هذه المرحلة الأمور التالية :

أ) الفرح بالمتع التي فتحها الله عليهم، كما بين ذلك في المرحلة الثالثة .

ب) الأخذ بغتة وإن هذا الأخذ يأتي إذا زاد الخبث والإصرار عليه .

ج) نجاة الدعاة الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

د) تعدد أنواع العقاب إلى قسمين :

١ - الاستئصال .

٢ - العذاب الشديد .

الفرح قبل العاصفة:

يقول تعالى:

﴿فَلَمَّا

نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ

حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

فَقُطِعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾

بعد أن نسوا أهداف البلاء الذي يريده الله سبحانه وتعالى عند ابتلائهم، ونسوا عهودهم ووعودهم بالأوبة إليه والاحتكام لشريعته، والثبات على نهجه، نقلهم إلى المرحلة الثالثة، وهي فتح أبواب الرزق من كل مكان، بل وزيادته عما كان قبل المصيبة الأولى، وعندما رأوا هذه النعم تنهال عليهم من كل مكان فرحوا بها فرحاً أطغاهم فتجاوزوا الحدود التي حدها الله تعالى، وأعماهم عن الصراط المستقيم حين رأوا المنكر معروفاً والمعروف منكراً وحاربوا الدعاة وضيقوا على كل من يذكرهم بخطورة ما هم عليه.

(٥١) الأنعام ٤٤، ٤٥.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْفَى ﴿٥٢﴾﴾ .

طغياناً أنساه ليالي المحنة وأيامها، أنساه معاناة الجوع والخوف وسجون الطغاة، أنساه الرعب والدعاء مع البكاء، والمناجاة لخالق السموات والأرض بأن يزيل الغمة، طغياناً أنساه كل شيء بسبب هذه النعم المتوالية عليه من كل مكان حتى ظن أن لن يقدر عليه أحد، وأنه قد سيطر على كل شيء في هذه الدنيا بسبب زخرفتها وتزينها له، اختياراً من الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنهَاء أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ .

يقول ابن كثير رحمه الله: «ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجته الله من الأرض بهاء أنزل من السماء مما يأكل

(٥٢) العلق ٧ .

(٥٣) يونس ٢٤ .

الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وما
تأكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك :

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي زيتها الفانية
﴿وَأَزْيِنَتْ﴾ أي حسنت بما خرج في ربها من زهور نضرة
مختلفة الأشكال والألوان ﴿وَوظَّتْ أَمْهَلَهَا﴾ الذين زرعوها
وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على جذاها
وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءت صاعقة أو ريح
شديدة باردة فأبيست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال
تعالى :

﴿أَتَسْمَأُ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا﴾ .

أي يابساً بعد الخضرة والنضارة ﴿كَأَن لَّمْ تَغْتَبِ بِالْأَمْسِ﴾
أي كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك»^(٥٤) .

وهذا ما كان النبي ﷺ يحذر منه أصحابه ، لأنه يعلم
ما بعد مرحلة انفتاح الدنيا من المصير المرعب لمن لم يعتبر
وهو يبين خوفه بوضوح من مرحلة ما قبل الإهلاك والتي
يطلق عليها (بسطة الدنيا) فيقول في الحديث الصحيح :

«أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى

(٥٤) تفسير ابن كثير ٢/٤١٣ .

عليكم ، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت
على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما
أهلكتهم»^(٥٥) .

لأن انفتاح الدنيا فتنه عظيمة يسقط بها معظم الناس
لوصولهم للطغيان الناتج من الفرح بما آتاهم الله من
النعم ، وظنهم أنهم قد تمكنوا من الدنيا تمكناً لن يستطيع
أحد أن يأخذها منهم ، وأنهم قد تمكنوا منها تمكن المتحكم
ببقاء هذه النعم وإدامتها ، ونسوا قدرة القادر العظيم الذي
وهبهم هذه الدنيا لينظر ما يعملوا فيها ، ونسوا أن هذه
النعم ما هي إلا لون من الاختبار والبلاء .

يقول سيد رحمه الله :

«هذا هو الماء ينزل من السماء ، وهذا هو النبات يمتصه
ويختلط به فيمرع ويزدهر . وها هي ذي الأرض كأنها
عروس مجلوة تتزين لعرس وتبرج . وأهلها مزهوون بها ،
يظنون أنها بجهدهم ازدهرت ، ويارادتهم تزينت ، وأنهم
أصحاب الأمر فيها ، لا غيرها عليهم مغير ، ولا ينازعهم
فيها منازع .

(٥٥) متفق عليه .

وفي وسط هذا الخصب المرع، وفي نشوة هذا الفرع
المللع، وفي غمرة هذا الاطمئنان الواثق . .

﴿ أَتَيْهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ
بِالْأَمْسِ ﴾ .

في ومضة، وفي جملة، وفي خطفة . . وذلك مقصود في
التعبير بعد الإطالة في عرض مشهد الخصب والزينة
والاطمئنان»^(٥٦) .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾
فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هكذا يأتي الإهلاك الأخير، بغتة، ودون مقدمات،
بعد أن أضاء الله لهم ضوء التحذير مرات عديدة، وفي
كل مرة يتناسون التحذير ويصرون على انتهاك حرمت
الله، دونما اكتراث لتحذير الدعاة لهم بالانتفاع من
الأزمات، ولزوم جادة النجاة، فيأبون إلا الاعوجاج،
فتكون الكارثة النهائية .

(٥٦) الظلال ٣/ ١٧٧٥ .

عاقبة تكذيب الدعاة :

إن الدعاة إلى الله تعالى هم أخلص الناس إلى وطنهم وأخوف الناس على قومهم ، وهم يعلمون العاقبة الخطيرة ، التي تنتظر قومهم إذا ما أصروا على الانحراف بعد أن منَّ الله عليهم بكشف البلاء ، ويستيقنون أن سنة الله تعالى في الأمم والمجتمعات لن تتبدل ولن تتحول أبداً ، ولا محاباة لأمة دون أمة ، فثبت هذه السنة في الخلق يجعلهم يبذلون كل ما لديهم من الجهد والطاقة في إنقاذ أمتهم مما هم مقدمون عليه ، ويتحملون في سبيل مرضاة ربهم وإنقاذ أمتهم من غضب الله تعالى الشدائد والأذى دونما كلل أو ملل . ولذلك فإن الله تعالى يكافئهم على صنيعهم هذا ، بأنه يستثنيه من العقاب عند إحلاله على أمتهم ، بينما لا يستثنى الصالحين الذين لم ينكروا المنكر ولم يأمرُوا بالمعروف ، فكانوا صالحين غير مصلحين .

يقول تعالى مبيناً صورة من صور الدعاة في أمة من

الأمم :

﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ

حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ

﴿١٥٨﴾

وَكَلِمَاتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

﴿١٥٩﴾

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا لَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ ﴿١٦٦﴾
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
﴿١٦٧﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٧﴾

ولقد أوضح المفسرون رضي الله عنهم، أن أهل القرية
قد انقسموا إلى ثلاثة فرق، وهي كالتالي:

الفريق الأول - وهو من أقدم على فعل المنهي عنه وهو
صيد السمك.

الفريق الثاني: من لم يقدم على الصيد ولكنه لم ينكر على
العصاة فعلتهم.

الفريق الثالث: من لم يقدم على الصيد، ولم يسكت عن
العصاة، بل وعظهم وذكرهم.

وهذه الفرق الثلاثة التي يضربها الله تعالى مثلاً في إحدى
قرى بني إسرائيل، إنما هي توجد في كل مجتمع وأمة،
حتى وإن كان مجتمعاً صغيراً، وهم في مصطلحاتنا الحديثة
«الدعاة، والطغاة، والصامتون» والصامتون هؤلاء لا

يستثنى الله تعالى إذا جاء عذابه لأنهم كانوا أحد الأسباب لزيادة الطغيان والظلم بسبب سكوتهم، يقول الإمام الرازي :

أما قوله ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني : أنهم لما تركوا ما ذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه، أنجينا الذين ينهون عن سوء وأخذنا الظالمين المقدمين على فعل المعصية .

واعلم أن لفظ الآية يدل على أن الفرقة المتعدية هلكت، والفرقة الناهية عن المنكر نجت، أما الذين قالوا : ﴿لم تعظون﴾ فقد اختلف المفسرون في أنهم من أي الفريقين كانوا؟ فنقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه توقف فيه . ونقل عنه أيضاً : هلكت الفرقتان ونجت الناهية، وكان ابن عباس إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : إن هؤلاء الذين سكتوا عن النهي عن المنكر هلكوا، ونحن نرى أشياء ننكرها، ثم نسكت ولا نقول شيئاً^(٥٨) .

ويقول سيد رحمه الله :

وهكذا انقسم سكان الحاضرة إلى ثلاث فرق . . أو

(٥٨) التفسير الكبير ١٥ / ص ٣٨ ، ٣٩ .

ثلاث أمم . . فالأمة في التعريف الإسلامي هي مجموعة الناس التي تدين بعقيدة واحدة وتصور واحد وتدين لقيادة واحدة، وليست كما هي في المفهوم الجاهلي القديم أو الحديث، مجموعة الناس التي تسكن في إقليم واحد من الأرض وتحكمها دولة واحدة! فهذا مفهوم لا يعرفه الإسلام، إنما هي من مصطلحات الجاهلية القديمة أو الحديثة!

وقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم: أمة عاصية محتالة. وأمة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة. وأمة تدع المنكر وأهله، وتقف موقف الإنكار السلبي ولا تدفعه بعمل إيجابي. . . وهي طرائق متعددة من التصور والحركة، تجعل الفرق الثلاث أمماً ثلاثاً!

فلما لم يُجد النصح، ولم تنفع العظة، وسبدر السادرون في غيهم، حقت كلمة الله، وتحققت نذره. فإذا الذين كانوا ينهون عن سوء في نجوة من سوء. وإذا الأمة العاصية يحل بها العذاب الشديد الذي سيأتي بيانه. فأما الفرقة الثالثة - أو الأمة الثالثة - فقد سكت النص عنها. . ربما تهويناً لشأنها - وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب - إذ أنها قعدت عن الإنكار الإيجابي، ووقفت عند حدود الإنكار

السلبى . فاستحقت الإهمال وإن لم تستحق العذاب :

﴿ فَمَا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
وَآخِذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
﴿٥٩﴾ فَمَا عَتَوْنَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٥٩﴾

إن العدد الأكبر من كل شعب، هو الفريق الصامت أو فريق المتفرجين، والذين قد يكونون صالحين في أنفسهم ولكنهم غير مصلحين، تجد الكثير منهم رواداً لبيوت الله تعالى، ومن أوائل من يتبرعون بصدقاتهم، ويكثرون من صيام التطوع وزيارة بيت الله للعمرة، ولكنها تبقى فئة سلبية، لأنها لم تغضب عند انتهاك حرمت الله تعالى، ولم تتقدم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآثرت السلامة من خطورة الإقدام، وظنت أنها الإسلام هو مسجد وصوم وعمرة وصدقة، ونست أو تناست طبيعة هذا الدين الذي لا ينتشر إلا بتحريك أهله فيه، ولا تتغير المجتمعات إلا بإحداث التغيير، ولا يتم التغيير إلا على أيدي البشر ذاتهم بواسطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لذلك كله لا يوقف الله تعالى عذاب الأمة لكثرة وجود مثل هؤلاء، لذلك كان رد النبي ﷺ واضحاً لأم المؤمنين زينب بنت

(٥٩) الظلال ٣/ ١٣٨٥ .

جحش وهي تسأل «أنهلك وفينا الصالحون، قال: «نعم إذا كثرت الخبث»^(٦٠) فلم تسأل «وفينا المصلحون فأجابها بالإيجاب إذا زاد الفساد والمفسدون، لا يستثنى هذا الصنف من المؤمنين، وإن كانوا من الصالحين، فما فائدة صلاحهم إذا كان لا يتعداهم لغيرهم؟ وما فائدة صلاحهم وهو لا يحركهم لإنكار ما يغضب مولاهم ومحبوبهم الذي يعبدونه؟

مكافئة المصلحين :

لأنهم يقومون بمثل هذه التضحية في سبيل مرضاة مولاهم، ثم لنجاة قومهم من الهلاك المحقق يكافئهم الله تعالى، باستثنائهم من العذاب والهلاك الأخير. إذ يقول تعالى:

﴿فَلَوْلَا

كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَيْكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ ﴿١١٧﴾

(٦٠) متفق عليه.

(٦١) هود ١١٦، ١١٧.

يقول الإمام الشوكاني :

« هذا عود إلى أحوال الأمم الخالية لبيان أن سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أنه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد ويأمر بالرشاد، فقال: ﴿فَلَوْلَا﴾ أي فهلا ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الكائنة ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَيْتَةٍ﴾ من الرأي والعقل والدين ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومهم ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ويمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل، وقوة الدين، وفي هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى، والبقية في الأصل لما يستبقه الرجل مما يخرجه، وهو لا يستبقي إلا أجوده وأفضله، فصار لفظ البقية مثلاً في الجودة، والاستثناء في ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منقطع: أي لكن قليلاً ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ ينهون عن الفساد في الأرض - وقيل هو متصل لأن في حرف التحضيض معنى النفي، فكانه قال: ما كان في القرون أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم، ومن في ممن أنجينا بيانية لأنه لم ينبج إلا الناهون، قيل هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر - إلا قوم يونس - وقيل هم أتباع الأنبياء وأهل الحق من الأمم على العموم ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ﴾ معطوف على مقدر يقتضيه الكلام، تقديره: إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد، والمعنى: أنه

اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهي عنه ما أترفوا فيه . والمترف: الذي أبطرتة النعمة، يقال صبي مترف: منعم البدن، أي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش ورفاهية الحال وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغرقوا أعمارهم في الشهوات النفسانية^(٦٢) .

وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم . فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله، في صورة من صورته، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير . فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلال . . والاختلال!

فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره، هم صمام الأمان للأمم والشعوب . . وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار

(٦٢) فتح القدير ٢/٥٣٣، ٥٣٤ .

ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صورته . .
 إنهم لا يؤدون واجبهـم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم
 يحولون بهذا دون أمهم و غضب الله، واستحقاق النكال
 والضياع^(١٣).

* قصة إهلاك آل فرعون:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ

بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٢﴾
 فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا النَّاهِذَةُ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ
 يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ
 لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٤﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
 الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۗ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
 فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٥﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ
 الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن
 كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي
 إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٦﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ
 هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٧﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ

(٦٣) الظلال ٤ / ١٩٣٣ .

فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾

لقد أرسل الله تعالى لهم بعد إصرارهم على الكفر والاعوجاج إنذارات متعددة قبل الإهلاك النهائي ، وكانوا بعد كل إنذار وبلاء وعقاب يتضرعون لله تعالى ويهرولون إلى موسى عليه السلام معاهدين الله تعالى بسلوك الصراط المستقيم إذا ما دعا الله تعالى بإزالة العذاب ، وهذا هو دأب الطغاة ، فإنهم إذا ضعفوا لجأوا إلى المخلصين ، ليكونوا معهم في أزمته ، وما أن يقروا حتى يتركوهم .

فلقد عاقبهم الله تعالى بالطوفان ، فكان الماء يصل إلى أعناقهم ، حتى إذا ضجروا وتضايقوا ، ذهبوا لموسى عليه السلام ليدعو لهم ، فلما كشف الله البلاء عادوا إلى معاصيهم ، ولم يستفيدوا ويعتبروا من البلاء ، فعاقبهم بالجراد الذي أكل محاصيلهم وزروعهم فلم يبق بها إلا القليل جداً ، كما هجم على بيوتهم ، حتى ضجروا ، وآبوا إلى الله تعالى ، وعاهدوه ، وطلبوا من موسى الدعاء ، فلما كشف الله عنهم العذاب عادوا إلى معاصيهم ، وهكذا كان دأبهم في عقاب القمل والضفادع والدم .

فكلما كشف عنهم الرجز عادوا لما كانوا عليه من

(٦٤) الأعراف ١٣٠ - ١٣٦ .

الغفلة، وفي كل مرة ينكثون الوعد والعهد فجاء الانتقام الأخير والذي لا رجعة بعده.

﴿فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾.

متى يتم الإهلاك :

إن هذه المرحلة الأخيرة لا تتم إلا إذا حدث إصرار على المعصية، وتمادٍ بالضلال والطغيان، وصاحب هذا الإصرار على المعاصي نسيان أو تناسي صيحات المخلصين بالابتعاد عن طريق الزلل. بل ومضايقتهم وتهديدهم بالكف عن النصيحة، بل وتزوير الاتهام عليهم بما ليس فيهم، فإذا ما تحقق ذلك، وكان عدد المفسدين أكثر وحجم الخبث أكثر جاء غضب الله تعالى إما بالإهلاك التام أو الاستئصال، وإما بالعذاب الشديد، والنكبة العظيمة، إذ يقول تعالى:

﴿وَأِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٦٥).

وقد يكون الإهلاك التام بصورة طمس القلوب فلا تهتدي أبداً، وقد تكون هذه وهذه معاً، والله أعلم.

(٦٥) الإسراء ٥٨.

الخاتمة :

إن هذه المراحل الأربعة، إنما تمثل سنة الله تعالى عند ابتلائه للأمم، وهذه السنة قد تنطبق على الفرد كما تنطبق على المجموعة أو الأمة، ولا توجد مدة زمنية محددة بين مرحلة وأخرى، وإنما توجد الآثار الدالة على انتهاء مرحلة إلى أخرى، إستقراءً لآيات الله تعالى، ومن رحمة الله تعالى أنه يترك فرصاً كثيرة للفرد أو الأمة بين هذه المراحل كي يعود ويثوب إليه قبل النهاية المؤلمة، وقد تكون المرحلة الرابعة مقسمة إلى مراحل كما حدث لآل فرعون، ولكن النهاية دائماً تكون مفاجئة وقاسية، إذا ما استكملت أمة من الأمم جميع الصفات التي تستحق من أجلها الإهلاك.

ونحن في الكويت قد مررنا بالمرحلة الأولى وهي الابتلاء ومررنا بالمرحلة الثانية وهي كشف البلاء، وها نحن في بداية المرحلة الثالثة، والتي لم تتضح معالمها حتى الآن فمننا من شكر ومننا من قد جحد وتنكب، ومننا من ينادي للإصلاح ويحذر من سلوك طريق الخطر، ولا نذري أي فئة تزداد، ولا نذري أيزيد الخبث أم الصلاح. وإنما نسأل الله تعالى أن يجنب هذا البلد وسائر بلاد المسلمين خطر

غضب الله تعالى، كما أن هذه الدراسة إنما هي بمثابة
صيحة من صيحات التحذير لأمتي كي لا يتحقق فيها ما
تحقق في الأمم المنصرمة، كما أنها موجهة بشكل خاص
للدعاة إلى الله بأن يبذلوا قصارى جهدهم ليمنعوا وقوع
الكارثة..

الفهرس

مقدمة ٥

المرحلة الأولى - مرحلة الابتلاء ٩

- ١٢ - أنواع البلاء
- ١٤ - السفينة الماخرة وغضبة البحر
- ١٥ - هول البحر
- ١٧ - سفينة الكويت
- ١٨ - الغفلة عن الرياح
- ١٩ - هبوب الرياح العاصفة
- ٢٢ - الإتجاه إلى رب السماء
- ٢٥ - عهد مع الله تعالى

المرحلة الثانية - كشف البلاء ٢٩

- ٣٢ - إستجابة الدعاء
- ٣٥ - صورة الإستجابة
- ٣٦ - بداية الإعراض
- ٤١ - إستفادة البعض من المحنة
- ٤٢ - سؤالات للفئة المعرضة

المرحلة الثالثة - فتح أبواب الرزق ٤٧

المرحلة الرابعة - الإهلاك ٥٥

- ٥٨ - الفرح قبل العاصفة
- ٦٣ - عاقبة تكذيب الدعاة
- ٦٨ - مكافئة المصلحين
- ٧١ - قصة إهلاك آل فرعون
- ٧٣ - متى يتم الإهلاك
- ٧٥ الخاتمة

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com



دار الدعوة للنشر والتوزيع

ص.ب : ٦٦٥٢٠ بيان

ت : ٥٣٩٦٩٤٠

الرمز البريدي : 43756

الكويت